توظيف المصطلح البلاغي في تفسير القرآن الكريم

- دراسة مقارنة بين الكشاف والمنير –

- سورة القارعة أنموذجا–

The use of the rhetorical term in the interpretation of the Holy Quran - A comparative study between Al kashaf and Al-Munir - -.Surat Al-Qaria, a model -

الدكتورة خليدة بن عياد

جامعة المُحَمَّد بوقرة بومرداس k.benayad@univ-boumerdes.dz

تاريخ الارسال30 / 08 / 2020.	تاريخ القبول29 / 03 / 2021..	تاريخ النشر 15 / 04 / 2021.

الملخص	Abstract
تمتلك السور القصيرة في القرآن الكريم(القصار) من الخصائص البلاغية والأسلوبية والفنية ما يجعلها معجزة لغوية ،ولها من السمات ما يميزها سرداً و تعبيراً ،ومنها سورة القارعة التي تسرد مشاهد غيبية تتعلق بأهوال يوم القيامة فتعرضها في صورة شريط سينمائي يستحضره القارئ في خياله فيعيش تلك الأهوال والأجواء، وتختلج في نفسه مجموعة من المشاعر والأحاسيس ، وما كانت الوسيلة إلى ذلك سوى لغة رفيعة ومجموعة من الصور البلاغية صيغت بأسلوب فني رهيب .وقد تعرض لها المفسرون بالقراءة والتحليل كل حسب آلياته(النحوية والبلاغية والتصويرية).	The short surahs in the Noble Quran (al-Qessar) have rhetorical, stylistic and artistic characteristics that make them a linguistic miracle, and it has features that distinguish it in narration and expression, including Surah al-Qaria, which lists metaphysical scenes related to the horrors of the Day of Resurrection. In a high language and a group of rhetorical images formulated in a terrible artistic style. The commentators have been exposed to reading and analysis, each according to his mechanisms. Hence, this research paper tries to touch a group of rhetorical terms derived from rhetorical images and how they were employed to extend the meanings of the verse?. Touching in this an interpretive

reference between two books, one of them is old (Al-Kashaf by Al-Zamakhshari) and the other is modern (Al-Tafsir Al-Munir Al-Zuhaili). This is in order to search for the new **terminological connotations** added by modern commentators		ومنه تحاول هذه الورقة البحثية أن تلامس مجموعة من **المصطلحات البلاغية** المستنبطة من الصور البلاغية وكيف تم توظيفها لبسط معاني الآيات؟ إذ حقق تواجدها في النص تأثيرا في القارئ؟ متلمسين في ذلك مرجعية تفسيرية بين كتابين هامين أحدهما قديم (الكشاف للزمخشري) والآخر حديث (التفسير المنير لوهبة الزحيلي) وهذا من أجل البحث في **الدلالات المصطلحية** الجديدة التي أضافها المفسرون المحدثون.
Keywords: : al-qessar Fence; Rhetorical images; The term; Rhetoric of the term ; Explanation		**كلمات مفتاحية:** : السور القصار؛ الصور البلاغية؛ المصطلح؛ بلاغة المصطلح؛ التفسير

الدكتورة خليدة بن عياد – الايميل: k.benayad@univ-boumerdes.dz

1.مقدمة : ورد في القرآن الكريم ترتيب مذهل للسور القرآنية حيث انتبه إلى ذلك علماء التفسير واللغة منذ بداية الدرس اللغوي والقرآني في أوائل العهد الإسلامي. وما علم المناسبة والتناسب إلا حصيلة عمق الاهتمام بالنص القرآني. قد واصلت الأبحاث والدراسات الحديثة مسارها نحو استكناه لطائف وإعجاز البيان القرآني. ولا شك أن الترتيب في المصحف هو توقيفي من الله عز وجل؛ ولكن يجب على المسلم الباحث أن يقترب أكثر إلى النصوص القرآنية ليعرف جوانب من الإعجاز والبلاغة فيها.

وإذ وجدنا في ترتيب السور وتسميتها أنواعا فذلك مما وفّق الله إليه الباحثين الجادين في التعامل مع قدسية النص. فنجد الطوال والمثاني والمئين والمفصل والقصار وتسميات أخرى لبعض السور، ولا شك أن لتلك التسميات جانبا يتعلق بالتسهيل في القراءة والتقسيم وجوانب عدة منها تتعلق بالخصائص والسمات.

وأما السور القصار فهي تلك التي وجدت في نهاية المصحف والتي تملك من الخصائص البلاغية والأسلوبية والفنية ما تملك ،ولها سمات تميّزت بها من حيث اللغة والتعبير ،ومنها سورة القارعة التي تسرد مشاهد غيبية تتعلق بأهوال يوم القيامة فتعرضها في صورة شريط سينمائي يتخيله القارئ بكل سهولة فيعيش تلك الأهوال والأجواء، وتختلج في نفسه مجموعة من المشاعر والأحاسيس ، وما كانت الوسيلة إلى ذلك سوى لغة رفيعة بأصواتها ومفرداتها ومجموعة من الصور البلاغية صيغت بأسلوب فني رهيب .وقد تعرض لها المفسرون بالقراءة والتحليل كل حسب آلياته(النحوية والبلاغية والتصويرية).

يعد التصوير البياني ظاهرة لغوية نصية عرفتها الدراسات العربية منذ القديم، فأشارت إلى الطريقة التي تأتي بها الصورة البيانية في النصوص النثرية أو الشعرية للدلالة على الحالة الموصوفة بطريقة بلاغية أسهل وأبين.

أما إذا تعلق البيان بالنص القرآني فهو مجال القمّة البلاغية والتميّز الأسلوبي الصرف ولذلك وجدنا أغلب أمهات الكتب الأولى تهتم بروائع البلاغة القرآنية وتكشف مواطن الإعجاز فيها وعلى نهجها سارت كتب وتفاسير حديثة تحاول أن تنير الطريق للمريدين في مجال البيان اللغوي والبلاغي في القرآن.

وانطلاقا من ذلك؛ نسعى من وراء هذا العمل تسليط الضوء على مرجعين هامين في مجال التفسير القرآني، أحدهما قديم (الكشاف) للزمخشري، وثانيهما حديث (المنير) للزحيلي، وفق دراسة تحليلية وصفية مقارنة للطريقة التي عولجت بها الصور البلاغية الواردة في سورة القارعة والكيفية التي وظف بها المصطلح البلاغي، في كلا التفسيرين، وذلك من أجل الكشف عن التطورات والتغيرات التي تكون قد طالت المصطلح البلاغي لدى المفسرين بين القديم والحديث.

2. علم التفسير:

في اللغة يعني الإيضاح والتبيين أما في الاصطلاح فهو " علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية " [1] وقيل إنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه مُحَمَّد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج حكمه وأحكامه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات " [2] وقد جرت عادة الكتب والمؤلفات أن يذكر مصطلح آخر إلى جانب مصطلح التفسير وهو التأويل، وذكرا في أشهر معانيهما على سبيل الترادف.

و أما عن الفرق بينهما (التفسير والتأويل) فيقول بعضهم " التفسير ما كان راجعا للرواية والتأويل ما كان راجعا للدراية" [3] ، وقيل إن التفسير ما تعلق بنص واحد واحتمل معنى واحدا والتأويل ما تعلق بنص واحد واحتمل أكثر من معنى، أما عند المتكلمين فهو صرف اللفظ عن معنى ظاهر إلى معنى خفي لدليل يقترن به [4].

وقد انقسمت كتب التفاسير في المنهج المتبع، فعرف بعضها بالتفسير المأثور والآخر بالتفسير بالرأي أما الأول فهو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول ﷺ والتابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص الكتاب الكريم [5]

وأما الثاني فيطلق على التفسير بالرأي والاجتهاد والقياس بعد أن يتحقق المجتهد بشروط المفسّر المنصوص عليها عند أهل العلم[6] وطبعا فآراء العلماء في قبول هذا التفسير منقسمة ببين رافض ومتقبل وبين متوسط بينهما على حسب درجة قبول العقل لطريقة التفسير وتخريجاته بما يتوافق وشروط النص القرآني.

1.2 كتاب الكشاف للزمخشري (تفسير *الكشاف* عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)

كتاب التفسير الأول وهو الكشاف لصاحبه الزمخشري الملقب بجار الله وهو واحد من أهم التفاسير، ويذكر الإمام في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه فقال: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، فأفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى

مصنف يضم أطرافا من ذلك " حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "[7].

وهو من التفاسير الكبيرة المهتمة بعلوم البلاغة خاصة علمي المعاني والبيان وهما من أبرز ما اشتهر به الزمخشري من العلوم وقد قيل إن " قيمة هذا الكتاب تبرز من خلال علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان ، وبهما برع الزمخشري حتى أصبح سلطان هذا الفن ، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب "[8] وكما أنه برع في استخراج أسرار البلاغة القرآنية فهو متميز ومتفرد–حسب ما ورد من آراء ومؤلفات سابقة[9] – في الكشف عن جماليات التعبير القرآني ومتفرد أيضا في إظهار رونقه وسحر بلاغته " ولا سيما برز فيه من الإلمام بلغة العرب ، والمعرفة بأشعارهم ، وامتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب "[10] وانطلاقا من تلك الخصائص والميزات اعتبر الكشاف ذ ا منهج متفرد جعله يتربع على قائمة التفاسير الأولى الأكثر شهرة ومرجعية عبر التاريخ الإسلامي، ويمتاز الكشاف بأمور منها:[11]

– خلوه من الحشو والتطويل.

– سلامته من القصص والإسرائيليات[12].

– اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.

– عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقا لوجوه الإعجاز.

– سلوكه فيما يقصد إيضاحه طرح السؤال والجواب كثيرا، ويعنون السؤال بكلمة " فإن قلت" بفتح التاء، –ويعنون الجواب بكلمة " قلت " بضم التاء."[13]

2.2. التفسير المنير للزحيلي: (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج)

هو كتاب عرف في العصر الحديث من التفاسير النادرة من حيث المعالجة والطرح في زمن كثرت فيه التوجهات الدينية والفرق العقائدية ، إذ حاول الابتعاد عن كل النزاعات والتفرعات والتزم مبدأ واحدا هو خدمة كتاب الله عزوجل وتيسير قراءته وفهمه للجيل الجديد وقد عبر الزحيلي عن دوافعه لكتابة هذا التفسير بقوله " و لست في كل ما أكتب متأثرا بأي نزعة معينة ، أو مذهب محدد ، أو إرث اعتقادي

سابق لاتجاه قديم ، وإنما رائدي هو الحق الذي يهدي إليه القرآن الكريم ، على وفق طبيعة اللغة العربية ، والمصطلحات الشرعية ، مع توضيح آراء العلماء والمفسرين ، بأمانة ودقة وبعد عن التعصب."[14]

ولكن ينبغي البعد عن استخدام آيات القرآن لتأييد بعض الآراء المذهبية أو اتجاهات الفرق الإسلامية ، أو التعسّف في التأويل لتأييد نظرية علمية قديمة أو حديثة ، لأن القرآن الكريم أرفع بيانا ، وأرقى مستوى ، وأعلى شأنا من تلك الآراء والمذاهب والفرق ، وليس هو كتاب علوم أو معارف كونية كالفلك وعلم الفضاء والطب والرياضيات ونحوها ، وإن وجدت فيه بعض الإشارات إلى نظرية ما ، وإنما هو كتاب هداية إلهية ، وتشريع ديني ، ونور يهدي لعقيدة الحق ، وأصلح مناهج الحياة ، وأصول الأخلاق والقيم الإنسانية العليا .

كما قال الله تعالى : **قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ "** [15].

وقد أورد الطريقة المتبعة والمنهج الذي انتهجه في تفسيره في مقدمة الكتاب بقوله "و ينحصر منهجي أو خطة بحثي فيما يأتي :

1 -قسمة الآيات القرآنية إلى وحدات موضوعية بعناوين موضحة.

2 -بيان ما اشتملت عليه كل سورة إجمالا.

3 -توضيح اللغويات.

4 -إيراد أسباب نزول الآيات في أصح ما ورد فيها ، ونبذ الضعيف منها ، وتسليط الأضواء على قصص الأنبياء وأحداث الإسلام الكبرى كمعركة بدر وأحد من أوثق كتب السّيرة.

5 -التفسير والبيان.

6 -الأحكام المستنبطة من الآيات.

7- البلاغة وإعراب كثير من الآيات ، ليكون ذلك عونا على توضيح المعاني لمن شاء ، وبعدا عن المصطلحات التي تعوق فهم التفسير لمن لا يريد العناية بها."[16]

وقد ألفينا منهجا واضحا ميسرا يساير المناهج الحديثة في التبسيط والتوضيح وهذا ما سيظهر أثناء التحليل، حيث يظهر على الزحيلي أنه حرص–قدر الإمكان كما قال – «على التفسير الموضوعي: وهو إيراد تفسير مختلف الآيات القرآنية الواردة في موضوع واحد كالجهاد والحدود والإرث وأحكام الزواج والرّبا والخمر، وسأبيّن عند أول مناسبة كل ما يتعلّق بالقصة القرآنية مثل قصص الأنبياء من آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم، وقصة فرعون مع موسى عليه السّلام، وقصة القرآن بين الكتب السماوية. ثم أحيل إلى موطن البحث الشامل عند تكرار القصة بأسلوب وهدف آخر. غير أني لن أذكر رواية مأثورة في توضيح القصة إلا بما يتفق مع أحكام الدين، ويتقبلها العلم، ويرتضيها العقل، وأيدت الآيات بالأحاديث الصحيحة المخرجة إلا ما ندر."[17]

3.السور القصار:

اختلف العلماء في تقسيم السور القرآنية بحسب الطول والقصر وهو كالتالي: السبع الطوال –المئون – المثاني – المفصل. وكل قسم من هذه الأقسام مجموعة من السور التي تنتمي إليه بداية من بداية ترتيب السور في المصحف الشريف إلى نهايته.

أما المفصل فهو ما ولي المثاني من قصار السور، وسمي بهذا الاسم لكثرة فصوله التي بين السور بالبسملة وقيل لقلة المنسوخ فيه، ولهذا يسمى بالمحكم [18] وعن أول سورة في المفصل اختلاف بين الجمهور فمنهم من قال سورة ق ومنهم من قال الحجرات وبالضرورة فآخره سورة الناس. وينقسم هذا القسم إلى ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار. والمشهور أن طواله من أوله إلى سورة عم، وقيل إلى سورة البروج، وأوسطه من عم إلى سورة الضحى، وقيل من الطارق إلى البينة، وقصاره منها إلى آخره، وقيل بل من الزلزلة إلى الناس والله أعلم [19]

وقد ورد في فضل هذه الأقسام عن أبي قلابة قول رسول الله صلى الله عليه السلام: أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضّلت بالمفصل "[20]

ولا شك أن هذا التقسيم إذا ما تعلق بحجم السور من حيث الطول والتوسط والقصر فإن هذه الأصناف لها خصائص ومميزات تفصلها عن غيرها من حيث الموضوعات وطريقة تناولها.

1.3 سورة القارعة:

في التعريف بالسورة ذكر الكشاف القارعة أي تقرع من أسماء القيامة، لأنها تفزع القلوب بالفزع، والقرع من الضرب. وأي شيء هي. وما أدراك ماهي أسلوب لتهويل حدثها وتأكيد على عظم أمرها، وبهذا يكون قد أعطى صورة عامة حول موضوع السورة. أما التفسير المنير فيشير أولا إلى كون السورة مكية وموضوعها التخويف بأهوال القيامة.....ثم ترتّب تحليل السورة عنده بالتطرق إلى التسمية ومناسبتها لما قبلها ثم ما اشتملت عليه السورة من مواضيع فأشار صاحب المنير مباشرة إلى التشبيه الوارد في بداية السورة **العهن المنفوش** والمرتبط بحالة الجبال يوم القيامة، وهو تشبيه قوي ثم عرض إلى التفسير بالتعرض إلى أبواب لغوية متفرقة بدأها بالإعراب فالبلاغة ثم المفردات اللغوية، ليصل بعدها إلى التفسير والبيان ويفصّل صاحب المنير في شرح معاني السورة ومقاصدها ويكثر من استخدام أسلوب التفسير وأداته فيوظف الحرف **أي** في كل مرة يحتاج إلى تفسير المعاني وبعد كل آية.

4.الصور البيانية بين التفسيرين وتوظيف المصطلح:

1.4الفراش المبثوث : وهي صورة بيانية بارزة عرفت بها سورة القارعة ويذكر صاحب الكشاف أنهم **شبهوا "بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار"** ويدعم الشرح بالشاهد الشعري لجرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي

أما الزحيلي فقد عمد إلى شرح الصورة البيانية أولا ثم اقتبس نفس الشرح الذي أورده الزمخشري–والمذكور آنفا –. فذكر نوع الصورة مشيرا إلى أنها **تشبيه مرسل مجمل** ذكر **فيه أداة التشبيه وحذف وجه الشبه** . ثم وصف حالة الناس وهم يخرجون من قبورهم يوم القيامة، فيسيرون على غير هدى في كل اتجاه وشرح شرحا قريبا إلى مفهوم المعاصرين وهو أنهم "كالحشرة الطائرة المعروفة المنتشرة المتفرقة أو كجميع الحشرات

الطائرة كالبعوض والجراد "[21] وبسبب حيرتهم من أمرهم كأنهم فراش منتشر أي متفرق ويدعّم الزحيلي المعنى بقوله تعالى في سورة القمر "كأنهم جراد منتشر " [22]. وزيادة في الشرح والتوضيح يشير الزحيلي إلى الفراش بكونه طائرا معروفبالحمق يتهافت على النار.

ويمكن توضيح طريقة التفسير بهذا المخطط:

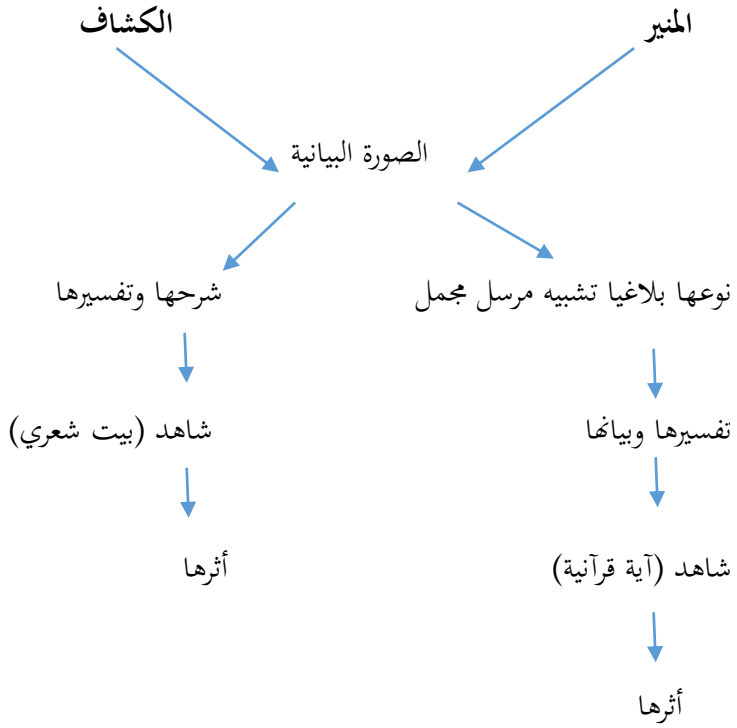

وما يقترب من هذا ذهب الشيخ الطوسي بقوله " إن الخلائق لعظم ما يرونه من الأهوال ويغشاهم من العذاب يهيم كل فريق على وجهه ويذهب في غير جهة صاحبه "ولم يقتصر هذا المفهوم على العلماء القدماء فقط بل أيده المحدثون وأكدوا عليه فعلة التشبيه بالجراد جاءت نظرا " للكثرة والتموج والضعف والذهول " [23]فسبب تشبيه الناس بالجراد هو ما يلحقهم من حيرة واضطراب في ذلك اليوم المهول [24]

والتشبيه في اللغة التمثيل، يقال شبهت هذا بهذا تشبها أي: مثلته به [25] ، أما في الاصطلاح فهو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم .والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير[26]

2.4كالعهن المنفوش : يذكر الكشاف **تشبيه** الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألوانا لأنها ألوان أي أنواع، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها. وأضاف قراءة ابن مسعود حين قرأها مباشرة كالصوف. وورد في المنير كالصوف المندوف في خفة سيرها وتبددها حتى تستوي مع الأرض " [27] في مجال الحديث عن المفردات والبلاغة أما في عنصر التفسير والبيان فقد أضاف ذكر الوسيلة التي يندف بها الصوف لتقريب صورة المندوف أو المنفوش وبذلك يتفتت ويسهل تطايره ويوضحها معنى آيات أخرى من القرآن تقارب الآية المقصودة في الدلالة وتشابهها مفهوما ومنها قوله تعالى «وإذا الجبال سيّرت"[28]

" وكانت الجبال كثيبا مهيلاً "[29]

المخطط :

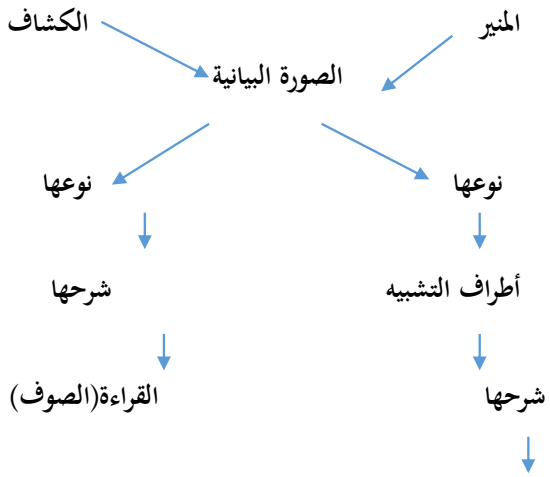

3.4 فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية و أما من خفّت موازينه فأمه هاوية": وفي الآيات الموالية ينتقل الحديث إلى ذكر الجزاء على الأعمال وأحوال الناس وتفرقهم إلى فرقتين .

يذكر صاحب الكشاف الموازين بأنها ما له وزن وخطر عند الله ويذكر حديث أبي بكر لعمر رض الله عنهما في وصيته " وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم. ولم يتم الإشارة إلى العيشة الراضية وكيفيتها في الدنيا والآخرة.

وبالمقابل يركز صاحب المنير على الأفراد وحالتهم بفرحهم بكل الجزاء « ...فهو في عيشة مرضية يرضاها صاحبها في الجنة " [30] ثم أعطى شرحاً لكلمة العيشة " كلمة تجمع النعم التي في الجنة " [31]

و في الكفّة الثانية الكفّة الخفيفة موازينها يقرّ الزمخشري بأحقية الخفة لميزان لا توضع فيه إلا السيئات فأنى له الثقل ، أما الزحيلي فيركز مباشرة على الجزاء والعقاب ويعقب على شكل الميزان وكيفه بأسلوب ينبئ عن مذهبه واعتداله السني " ونحن نؤمن بالميزان كما ورد في القرآن ، دون أن ندري كيفية وزنه وتقديره "[32] . ويذكر في باب البلاغة أن الصيغة "عيشة راضية" مجاز عقلي إذا يقصد بـ " **الراضية** "اسم الفاعل من الفعل **رضي** أي إنّ صاحبها راض بها. كما تحتوي الآية الكريمة على أسلوب احتباك وهو أن يحذف في كل نظير ما أثبته في الآخر.

المخطط:

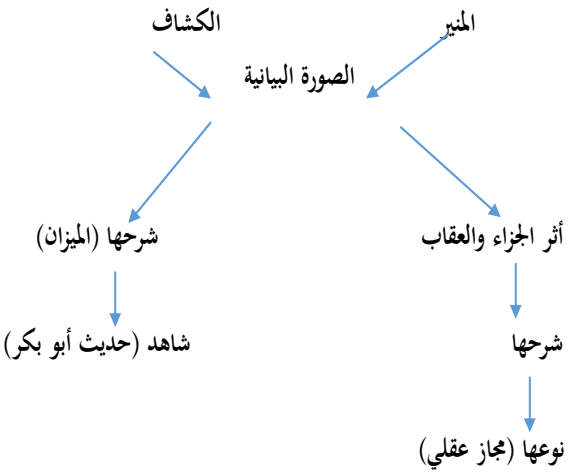

أثرها البلاغي

وعن معنى المجاز في كتب اللغة والبلاغة فهو مفعل من جاز الشيء يجوز إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوحيه أصل اللغة وصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز مكانه الذي وضع فيه أولا[33] ...فالمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي[34]

وأما الأساليب المجازية في استخدام لفظ الميزان فقد شاع إطلاق الميزان على العدل، باستعارة لفظ الميزان للعدل على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، والميزان هنا مراد به العدل، مثل الذي في قوله تعالى: وأنزلنا معهم الكتاب والميزان " [35] ومنه يظهر أن لفظ موازين قد خرج عن معناه الحقيقي، لإفادة تعبير مجازي أريد به أحد الأمور التالية:

الأول ما يحتوي الميزان بداخله والثاني يعني الكفة – وأما الثالث فيحمل معنى العدل.

4.4 فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية :

يشرح الزمخشري معنى كلمة الهاوية بقول العرب" إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً " [36]وهذا شرح لغوي للفظة يقرب معناها إلى الأذهان، ويضيف شاهدا لغويا آخر للإغراق في الشرح والتوضيح للمعنى اللغوي كونه – الزمخشري –لغوي التكوين حيث دعّم المعنى ببيت من الشعر لم يذكر قائله :

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يرد الليل حين يؤب

ويضيف إلى التفسير والشرح أن الهلاك بسبب خفة الموازين وقلّة الأعمال الصالحات، ويستخدم لفظة **قيل** لتقريب المعنى الاصطلاحي **النار العميقة** التي يهوي فيها أهل النار مهوى بعيدا ثم يستخدم **روي** لإيراد الحديث النبوي «يهوي فيها سبعين خريفا "

أما التفسير المنير فيشرح الهاوية أنها المسكن والمأوى الذي يأوي إليه وهي من أسماء جهنم، ويشرح سبب التسمية بأنها العميقة التي يرتمي فيها بقوة كما يرتمي الطفل في حضن أمه أي هو ألصق بها وإليها ينتمي بفعل عمله لا إلى سواها. ثم يدعم تفسيره لمعنى جهنم بأحاديث شريفة ذكر تخريجاتها وإسنادها.

والتعبير السابق كناية لم تذكر بمصطلحها البلاغي في التفسيرين، إذ الكناية " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه [37]فهي معنى يختبئ تحت لفظ مقصود ولها القدرة على زيادة التأمل العقلي والتدبر لأنها تقود السامع إلى إعمال العقل وصولا إلى المراد..والكناية في الآية الكريمة السابقة يراد من خلالها الوصول إلى معنى معين ذكره ابن عاشور قائلا :"فأمه هاوية خبر مستعمل كناية عن المصيبة اللاحقة به لسوء مصيره ...أي وما أدراك ما تلك المصيبة أي بلغت في كنهه المصائب مبلغا لا يتصور بسهولة " [38]

– أخرج مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ " نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قالوا يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ قال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا ".

– وحديث آخر أخرجه أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ " هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم "

– وأخرج أحمد أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ "إن أهون أهل النار عذاباً: من له نعلان يغلي منهما دماغه "

– وثبت في الصحيحين: " إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم "[39]

وبعد الشرح والتفصيل في أمر جهنم وشدة حرّها يختتم الزحيلي كل تفسير بعنصر عنون له بفقه الحياة والأحكام يستنبط فيه جملة من العبر والدروس، وهذا دأبه في كل السور الأخرى، ونجده في هذا العنصر يعيد حوصلة ما ذكره سابقا ليجعله خاتمة للتفسير، حتى قيل إن التفسير المنير فيه الكثير من التكرار والإطناب لشدة ما يفصّل في نفس اللفظة والفكرة في عدة عناصر متفرقة: مفردات لغوية – بلاغة – تفسير وبيان – ثم فقه حياة وأحكام. والحقيقة أيضا أنها طريقة منهجية حديثة في التعامل مع النص القرآني فهو إن أخذ عن سابقيه في بعض المواضع (الزمخشري – القرطبي) فهو يعيد تسليط الضوء بشيء من الوضوح في كثير من القضايا عندما يفصلها في عناصر منفصلة، وهذا أقرب إلى المناهج الحديثة في

التحليل بل من صميم ال بحث المعاصر الذي يبتعد عن العموميات والشموليات في العلوم ويجنح إلى التخصصات الدقيقة في الدراسة.

5.خلاصة:

- يبدو من خلال التحليل أن من التفاسير ما تهتم بجانب دون آخر فمنها ما تركّز على معاني الآيات ومنهم من اهتم ببيان البلاغة ومنهم من اهتم بالإعراب أو ببيان إعجازه العلمي واللغوي ..وكذا ظهر في التحليل الفروقات بين الكشاف والم نير كل يركز على جوانب معينة في حين وجدنا أن تفسير الزحيلي أوسع وأشمل فهو يحاول الإلمام بكل الجوانب اللغوية والبيانية ، في منهج شمولي " فبين المفردات اللغوية ، وأعرب كثيرا من الآيات القرآنية ، وأوضح البلاغة في آيات القرآن وتطرق أيضا إلى فقه الحياة من عقيدة وأخلاق وأعمال وأحكام عملية مستنبطة من الآيات ."[40] ولعله ذاك الذي أراده الزحيلي من الكتاب فجمعه في عنوانه " **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** " وقد صرح بنفسه في مقدمة كتابه عن رغبته في تحصيل هذا الأمر إذ أن القارئ إذا قارن بين تفسيره والتفاسير الأخرى القديمة والحديثة " وجده يمتاز بالشمول والإغناء والإحاطة بكل ما يتطلبه القارئ من لغة وإعراب، وبلاغة، وتأريخ، وتوجيه، وتشريع، وتفقيه في الدين، مع التزام واعتدال والتوسط في البيان دون استطراد "[41]
- – الكشاف يفسّر القرآن الكريم مباشرة وهو يجري على الطريقة التقليدية إذ يتناول السورة آية آية والآية جزءا جزءا حتى يبدو أحيانا للقارئ أن الزمخشري" يدخل تفسيره بين كلمات القرآن وعباراته بحيث يبدو الكلام متصلا لا أنه نص وتفسير "[42]
- ومن ملامح التفسير عند الزمخشري أنه يسوق بعض الروايات أحيانا كما ورد ذكر وصية أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهذا أمر قليل في تفسيره علما أنه لا يذكر سلسلة الإسناد

بل يسوق الرواية مباشرة ممهدا لها بكلمة روي أو قيل. وقد ورد في شرح أمه **هاوية** " كما روي: يهوي فيها سبعين خريفاً.... وقيل للمأوى أم على التشبيه.

– رغم أن السورة قصيرة فإن ملامح من شخصية المفسّر تنطبع على تفسيره، فالزمخشري مثلا إلى جانب أنه مفسر لكتاب الله عز وجل فهو عالم نحو وعالم لغة وله في العلمين مصنفات مطولة "[43] ويظهر أثر ذلك أنه يحتفي بالنحو والإعراب والاشتقاق والتصريف في تفسيره احتفاء كبيرا حتى إنه ينفق وقتا طويلا مثلا في إعراب ما لن يترتب على إعرابه شيء ذو بال" [44] وكذلك في شرح ضمير الهاوية وأضاف الهاء للسكت.

–ويذكر الزمخشري بعض أبيات الشعر في تفسيره لشرح معنى بعض الكلمات من الآيات، وقد يذكر اسم الشاعر أحيانا وقد يستغني عن ذكره أحيانا أخرى، كما ورد في ذكر البيتين السابقين في سورة القارعة، بيت لجرير في هجاء الفرزدق، وبيت أخر بقوله "**قال** " في شرح معنى هاوية.

–وفي جوانب لغوية يستفيض الزمخشري في الشرح حتى في اللفظة الواحدة الفراش والعهن ..الهاوية ....الخ ورغم بلاغة الرجل (الزمخشري) واستفاضته في تحليل الكثير من المواقف والصور البيانية القرآني إلا أنه في سورة القارعة نحسبه لم يستفض فيها كعهده في السور والآيات الأخرى. ومع ذلك فقد وجدنا فعلا أنه كان مرجعا للكثير من المفسرين في إبراز المعاني البلاغية وإن" تحليلات الزمخشري البلاغية هذه قد لاقت ثناء جما من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، حتى إن المنيّر نفسه الذي نصب نفسه للتفتيش عن آرائه الاعتزالية وتسفيهها إذ أنه كثيرا ما يصيح صيحة الإعجاب عند تحليل الزمخشري لهذه الصورة أو لذلك التركيب "[45]

–على الرغم من المآخذ المذهبية التي قيلت حول الزمخشري وتفسيره إلا أنه ظل مرجعا ومنارة يستضاء بها في الكثير من المسائل الفقهية والبلاغية.

–أسلوب الاختصار وأسلوب الإيجاز الذين اعتمدهما الكشاف لم يخلا بقيمته العلمية، فقد استهوى بأسلوبه وببلاغته أكثر الدارسين حتى كان انطلاقة لعدة كتب ومصنفات وشروح جديدة.

- يقتصر الزحيلي على الأخذ من القدماء فحسب، بل اطّلع على آراء المحدثين وأفاد منها فقد مزج بين الماضي والحاضر وهذا يدلّ على سعة اطلاعه ومعارفه.

-شخصية الزحيلي المعتدلة في التفسير وعدم الانحياز لأي مذهب أو فرقة، وإبداء رأيه في مسائل الخلاف دون أي تعصب، أمر واضح من خلال هذه الدراسة الموجزة فهو يأخذ من الجميع ويدلي برأيه ويتحرى الوسطية والإفهام.

-توظيف المصطلح اللغوي، يؤكد على دقة المنهج المتبع في التفسير، علما أن العلماء الأوائل كانوا مدركين للطائف اللغوية التي تفيد بها علوم اللغة المختلفة .قال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى "اعلم أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتم والمهم والمقدم لعموم الحاجة إليه واقتصار القاصر عليه"[46]

-يتمثل المصطلح البلاغي في تلك التحاليل الدقيقة للصورة الفنية والتي تزيد من دلالة الآية قوة ووضوحاً.

وقد تزامن التطور المصطلحي مع تفسير القرآن الكريم حيث يقول عبد الرحيم عباسي " دفعت صفة الإعجاز التي امتاز القرآن بها العرب دفعا قويا نحو البلاغة يدرسونها ويعمقون البحث فيها لتكون وسيلة تساعدهم على فهم ذلك الإعجاز " [47]وقد ساهم الاعجاز البلاغي واللغوي في القرآن الكريم في دفع العلماء إلى مزيد من البحث والتقصي للكشف عن المكنون البلاغي بما خصه الله عزوجل من حسن التأليف وسهولة الكلم مع جزالة الأسلوب وسلاسته ما عجز الخلق عن الإتيان بمثله " **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** "[48]

هوامش البحث:

[1] الزرقاني عبد العظيم، (1943م) مناهل العرفان في علوم القرآن ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة 03 ج 3/2.ص93.

[2]الزركشي البرهان في علوم القرآن، (1999) دار الفكر ص115.

[3] السيوطي الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة، القاهرة د.ت. ج04 ص168

والزركشي، البرهان في علوم القرآن ص150.

[4] أنظر خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده (1986)، دار النفاس، ط 02 ، دمشق ، ص 52

.

[5] مُحَمَّد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون (2000) مكتبة وهبة للنشر، ط07ج01 ص152.

[6] الذهبي التفسير والمفسرون 255.

[7]أبو القاسم جار الله الزمخشري: تفسير ***الكشاف*** عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (2009)، تحق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ط 03بيروت الجزء 01 ص53.

[8]نفس المرجع السابق ج 01ص 12

[9] الإمام الهروي–الإمام ابن خلدون –الإمام التاج السبكي –الإمام ابن المنير المالكي (ينظر الكشاف ص12 و13).

[10]الكشاف ج 01 ص12

[11]الكشاف ج 01 ص12.

[12] وقد اعترض بعض الباحثين على هذه النقطة إذ توجد بعض الإسرائيليات في التفسير ولكنها قليلة مقارنة بمعاصريه أنظر تصنيف مناهج المفسرين من النشأة إلى ما قبل العصر الحديث (2013–2014) إعداد رمضان يخلف، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ص52.

[13] الكشاف ج 01 ص12.

[14] وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (1412) دار الفكر المعاصر بيروت ج01 ص09

[15] سورة المائدة الأية 15–16 .

[16] التفسير المنير ج 01 ص 5.

[17] التفسير المنير الجزء 1 ص10.

[18] علي عدلاوي، 2013، أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائدي والسلوك الحضاري للأمة الإسلامية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة تلمسان ص61-62.

[19] ينظر: موسى إبراهيم الإبراهيم تأملات قرآنية (بحث منهجي في علوم القرآن الكريم) دار عمار، شركة الشهاب الجزائر ص57-58

[20] الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن تح أحمد مُحَمَّد شاكر، (2000م) مؤسسة الرسالة، ط01بيروت لبنان ج 01 ص100

[21] وهبة الزحيلي: التفسير المنير ج 15 ص772

[22] سورة القمر الآية 54

[23] الشيخ أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، (2010) تح أحمد حبيب قصير العاملي بيروت ج10/ ص333

[24] ينظر مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد الشنقيطي، (دت)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر لبنان ج9ص72.

[25] مُحَمَّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (دت) دار المعارف القاهرة، ج7ص1080 (شبه).

[26] أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، (1999) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية ط 01ص214.

[27] التفسير المنير ج 15 ص771.

[28] التكوير الآية 03

[29] المزمل 14

[30] التفسير المنير ج 15 ص772

[31] التفسير المنير ج 15 ص 772

[32] المرجع نفسه ج 15 ص773.

[33] الكشاف ج4 ص796.

[34] عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ،1954، تحق م. ريتر، مطبعة وزارة المعارف اسطنبول ص356.

[35] سورة الحديد الآية 25.

[36] الكشاف ج ص1218

[37] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز (2001 تحق عبد الحميد الهنداوي دار الكتب لبنان ، ص66.

[38] مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير(دت) الدار التونسية للنشر تونس ج31ص336-337

[39] وفي رواية أخرى " أبردوا بالصلاة " وعن هنا زائدة بمعنى الباء .

[40] مُحَمَّد إبراهيم حسن حمد: الزحيلي وجهوده النحوية في كتابه التفسير المنير – دراسة وصفية تحليلية ص284.

[41] التفسير المنير ج01 ص 06.

[42] إبراهيم عوض، من الطبري إلى سيد قطب، 2010 دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه، دار الفردوس للطباعة، عمان ص 149.

[43] النموذج في النحو-المفصل في النحو –شرح المفصل – نكت الإعراب في غريب القرآن – صميم العربية ....الخ

[44] من الطبري إلى سيد قطب ص 163

[45] المرجع نفسه ص179.

[46] علي القاسمي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية ، 2008، مكتبة لبنان ناشرون ط 01 بيروت ص 266.

[47] عبد الرحيم عباسي، المصطلح البلاغي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، 2006دار العالمي للنشر والتوزيع ، عمان جوهر ، القدس،ط01،، ص 23.

[48] سورة الإسراء الآية 88.

قائمة المصادر والمراجع

-الزرقاني عبد العظيم، (1943م) مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة 03.

- الزركشي، (1999)، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر

- السيوطي جلال الدين، د.ت، الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة، القاهرة. ج04

- العك خالد عبد الرحمن ، (1986) أصول التفسير وقواعده، دار النفاس، ط 02، دمشق.

- الذهبي مُحَمَّد حسين (2000) التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، مصر، ط07ج01.

- الزمخشري: أبو القاسم جار الله (2009)، تفسير *الكشاف* عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تحق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ط 03بيروت الجزء 01

-رمضان يخلف، (2013-2014)، تصنيف مناهج المفسرين من النشأة إلى ما قبل العصر الحديث)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

- وهبة الزحيلي، (1412) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج دار الفكر المعاصر بيروت.

-عدلاوي علي، 2013، أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائدي والسلوك الحضاري للأمة الإسلامية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة تلمسان الجزائر.

-موسى إبراهيم الإبراهيم،1984 تأملات قرآنية (بحث منهجي في علوم القرآن الكريم) دار عمار، شركة الشهاب الجزائر

- الطبري، مُحَمَّد بن جرير، (2000م) جامع البيان في تأويل القرآن تح أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط01بيروت لبنان.

- الطوسي أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن، (2010) التبيان في تفسير القرآن، تح أحمد حبيب قصير العاملي بيروت

مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد الشنقيطي، (دت)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر لبنان

- ابن منظور مُحَمَّد بن مكرم، لسان العرب (دت) دار المعارف القاهرة، ج7ص1080 (شبه).

- الهاشمي أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، (1999) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية ط 01

- الجرجاني عبد القاهر أسرار البلاغة ،1954، تحق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف اسطنبول.

-الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز (2001 تحق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب لبنان،

- ابن عاشور مُحَمَّد الطاهر، (دت)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس

- حسن حمد مُحَمَّد إبراهيم ، 2016، الزحيلي وجهوده النحوية في كتابه التفسير المنير – دراسة وصفية تحليلية، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية غزة فلسطين.

-إبراهيم عوض، 2010من الطبري إلى سيد قطب، دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه، دار الفردوس للطباعة، عمان

- القاسمي علي، 2008، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية، مكتبة لبنان ناشرون ط01 بيروت.

- عباسي عبد الرحيم، 2006 المصطلح البلاغي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، دار العالمي للنشر والتوزيع، عمان، ط01،